محمد بن جيا الحلي

جواد أحمد علوش
مدرس في كلية التربية

اسمه ومولده ونشأته :

هو شرف الكتاب جمال الدين أبو الفرج محمد بن أحمد بن حمزة ابن جيا الحلي • فاسمه محمد بن أحمد • وكنيته أبو الفرج[1] • وقد لقب بشرف الكتاب عن جدارة واستحقاق لما كان يتمتع به من موهبة أدبية وقدرة في الكتابة ، واطلاع على علوم العربية ، فكان هذا اللقب موازيا للقبه الاول (جمال الدين) في الاشتهار • ينسب الى آل جيا ، وهم أهل علم وأدب وفضل في قرى النيل[2] ثم في الحلة فيما بعد ، وقد رُوِيَ على أشكال : جَيا أو جِيا ، بفتح الجيم أو بكسرها ، وجيّا أو جيا ، بتشديد الياء أو تخفيفها ؛ وجيا أو جياء بالقصر أو المد • ويرى القفطي في كتابه (المحمدون) ان المقصور أشهر • وفي مدينة الحلة ، اليوم ، حي في محلة المهدية يطلق عليه اسم (الجيا) بكسر الجيم وتشديد الياء وتخفيف الالف المقصورة وا لظاهر أن هذه التسمية ترجع اليه أو الى آبائه أو أولاده ، وقد تكون هذه الارض من املاكه يوم كانت له املاك ، كما يوجد في هذا الحي ضريح عليه قبة لعله قبر أحدهم • أما نسبته الى الحلة فنسبة نشأة وطول اقامة ، فهي ليست مسقط رأسه ، وانما انتقل اليها فيما بعد ، فأقام فيها وتلقى شيئا من تعليمه ، وعرف واشتهر ، فلما غادرها الى بغداد نسب الى البلد الذى جاء منه ، فقيل (الحلي) • ونسبه جلال الدين

---

(١) كناه ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عند الكلام عن (الغامرية) بأبي الفتح • وهذا خطأ واضح اذا كان يعنيه اذ قال : « الغامرية : قرية في أرض بابل قرب حلة بني مزيد ••• منها كان أبو الفتح بن جيا الكاتب الشاعر •

(٢) قرى على نهر النيل ، وهو نهر يتفرع من الفرات قرب الكوفة أنشأه الحجاج الثقفي وسماه باسم نيل مصر ، ونشأت عليه مئات القرى •

السيوطي الى (حلب) فقال[1] : « الحلبي » ولاشك أن ذلك من خطأ الطبع للتشابه الكبير في الخط ، بين (الحلي) و (الحلبى) أو من أوهام السيوطي ، اذ أن ابن جيا لم يعرف عنه أنه أقام في حلب أو زارها فينسب اليها ، كما حدث في اسم راجح الحلي[2] الذي أطال الاقامة في حلب فجاز للدارسين أن ينسبوه اليها .

ولد ابن جيا في (مطير آباد)[3] وهي من قرى النيل التابعة لبني مزيد[4] . ولم يذكر أحد تاريخ مولده ، ولكننا نستطيع أن نقربه تقريبا ، فقد ذكر أكثر المؤرخين وكتاب السيرة أنه توفي عام (تسعة وسبعين وخمسمائة للهجرة) (٥٧٩هـ)[5] ولما كان قد نيف على الثمانين فمولده في أواخر القرن الخامس الهجري ، أو في أواسط العشرة الاخيرة من هذا القرن .. وعلى ذلك نحتمل أن مولده كان في أثناء تأسيس مدينة الحلة على يد الامير سيف الدولة صدقة بن منصور المزيدى الاسدى ، اذ أن العمل بتأسيسها بدأ سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة (٤٩٣ هـ) وقد تم سنة خمس وتسعين وأربعمائة (٤٩٥ هـ) وان كان استاذنا الدكتور مصطفى جواد يذهب الى أن مولده كان قبل تأسيس الحلة اذ قال : « ولد بمطير آباد ثم

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٩ .

(٢) هو شرف الدين أبو الوفاء راجح بن ابي القاسم اسماعيل الاسدي الحلي . ولد بالحلة المزيدية سنة (٥٧٠هـ) وبها نشأ وتعلم وتأدب ورحل الى بغداد وطاف البلاد ، وعاش مع ملوك بني أيوب وصار شاعرهم المفضل توفي سنة (٦٢٧هـ) .

(٣) تتركب (مطير آباد) من (مطير) وهي تصغير مطر و (آباد) ومعناها عمارة وتروى (آباذ) المعجمة كما تروى (أباد) بالهمز (و (آباد) بالمد .

(٤) هم من بطون بني أسد بن خزيمة كانوا في القرن الرابع الهجري يقطنون بين البصرة وواسط والاهواز وحصلت خلافات بينهم اضطر بنو مزيد بعدها الى الانتقال الى نهر النيل قرب الكوفة وجعلوا (النيل) حاضرة لهم سنة ٤٠٥هـ وكان أميرهم (أبا الحسن علي بن مزيد) ثم بنوا الحلة وانتقلوا اليها .

(٥) الوافي بالوفيات للصفدي ج ٢ ص ١١٢ ـ ارشاد الاريب لياقوت الحموي ج ٦ ص ٣٦٢ ـ بغية الوعاة ص ٩ .

انتقل الى الحلة بعد تمصيرها »[1] فمما لاشك فيه أن هذا النص يدل على أن مولده سبق تأسيس الحلة بفترة ما من السنين عاشها ابن جيا في مسقط رأسه ، فلما انشئت الحلة واشتهرت انتقل اليها ... ومما يؤيد ما ذهبنا اليه استعمال (ثم) التي تفيد التراخي .. كما يقول النحاة .

ويلوح لي أنه ولد في (مظير آباد) ونشأ فيها فلما كبر وشب عن الطوق ، ورغب في تعلم العلوم والآداب ، تلفت حوله باحثا عن بلد قريب ينال فيه ما يحب ، ويحصل على ما يشتهي ، فلم يجد خيرا من الحلة التي حاول مؤسسوها المزيديون أن يرتقوا بها وأن يجعلوها في مصاف أكبر المدن علما وأدبا ، وأكثرها شهرة .. فشجعوا العلم والادب ، ورعوا العلماء والادباء ، وبذلوا لهم الاموال الكثيرة وأكثروا لهم الهدايا الثمينة ، فصارت قبلة طالبي المال والشهرة ، وكعبة طلاب العلم والادب . وكان ابن جيا من اولئك الذين قصدوها وانتقلوا اليها ، ولا عجب فهي قريبة من موطنه ، فقد أسرع اليها يرتوي من معين آدابها كل عذب مستساغ ، ويرتشف من علومها كل نافع مفيد . الا أننا لا نعرف أكثر من هذا عن سيرته ، فهي غامضة غموض سير جميع عباد الله الفقراء ، اذ ليس هناك من يلتفت اليهم يوم يولدون ، ويرقبهم حين ينشأون ، ويحس بهم عندما يتعلمون ، ليكشف لنا شيئا من جوانب حياتهم ، وليلقي الضوء على المظلم من سيرتهم ... لكن ابن جيا لم يستقر في الحلة ولم يبق فيها طويلا ، اذ انتقل الى بغداد ، رغبة في تحصيل العلم والاستزادة منه ، وللازمة أساطين الادب والشعر وعلوم العربية هناك . واستطاع أن يتلقى النحو على أكبر علمائه يومذاك ، وهو (هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة أبو السعادات المعروف بابن الشجري) المتوفى سنة (اثنتين وأربعين وخمسمائة للهجرة) (٥٤٢هـ) وانقطع اليه زمانا طويلا وقد كان أعظم أهل زمانه في علم النحو ، فأفاد منه كثيرا . ثم درسه على (أبي محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب) المتوفى سنة

---

(١) مجلة الغري ـ السنة السابعة . العدد الثامن ص ٣ ادباء العراق في القرن السادس .

(سبع وستين وخمسمائة للهجرة) (٤٦٧هـ) وقد برع فيه حتى عُدّ من النحاة • وقد سمع الحديث من (أبي جعفر عبدالواحد بن أحمد الثقفي) الحنفي ، قاضي قضاة الدولة العباسية على أول عهد الخليفة (المستنجد بالله)[١] ولكنه لم يشتهر به لانشغاله بالادب وعلوم العربية ، وقد برع في الشعر فكان من الشعراء المشهورين ، وأبدع في الكتابة فكان من الكتاب المترسلين• وقد اتصل ، في بغداد ، بالوزير (أبي المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة) المتوفى سنة (ستين وخمسمائة للهجرة ٥٦٠ هـ) وقد كان عالما فاضلا وأديبا فطنا ووزيرا محبا للعلم ذا معرفة بعلوم العربية على اختلافها من نحو ولغة وعروض ، مشجعا للعلماء والادباء ، يقربهم اليه ويدنيهم من مجلسه ، يغدق عليهم المال ، ويكثر لهم العطاء ، ويقدر المبرزين منهم حق قدرهم ، ويعلي مراكزهم بين اخوانهم • وقد كان ابن جيا واحدا من اولئك الذين اعجب بهم ابن هبيرة وبأدبهم وعلمهم • وقربهم اليه وأدناهم من مجلسه ، فلازمه مدة طويلة ، وأفاد منه كثيرا معنويا وماديا • لان ابن هبيرة « كان يعقد في داره للعلماء مجلسا للمناظرة يبحثون فيه ويناظرون عنده •• »[٢] ولا جدال في أن ابن جيا كان واحدا من الذين يديرون دفة الحديث ، ويوجهون المناقشات ، فيفيدون ويستفيدون ، ينفعون ويبدعون ، ومع هـذا كله فانه لم يُثر ولم يصبح من ذوى المال والغنى ، فقد قال فيه صلاح الدين الصفدى : « •• لكنه ناقص الحظ ، له ملك يتبلغ منه الى أن مات ••• »[٣] وقد نستنتج من هذا أنه كان عزيز النفس أبيا لا يحب أن يستغل نفوذه أو ظروفه ، ولا يطمع في الحصول على الاموال من الوزراء والهبات من الرؤساء بدون جزاء ، ولمجرد مدحهم ومجالستهم • وكان يفضل على ذلك أن يعمل كاتبا يعد المسودات لكتاب العمال بحسب ما يقترحون عليه من الموضوعات المختلفة مقابل أجر زهيد مناسب ، كما كان يقوم بكتابة ما يسمى

---

(١) هو أبو المظفر يوسف بن أبي عبدالله محمد المقتفي بأمر الله • ولي الامر سنة (٥٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٦٦هـ) •

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٢٥٠ •

(٣) الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١١٢ •

اليوم بـ (العرائض) مفضلا الرزق الحلال الضئيل الذى يحصل عليه من عرق جبينه وكده وعمله ، على المال ، الوفير الذي يناله ـ وقد يتكدس لديه ـ بالاساليب الاخرى ، وان كان معاصره (عمادالدين الاصفهاني) صاحب (الخريدة) يرى أنه في هذا العمل « يسلك مسلك الخمول » ويعتبره مصاباً بحرفة ذوى الفضائل التي جاءته بالعوز والحرمان • ولكن ابن جيا مع ذلك ظل ينهج النهج الذى رسمه لنفسه ويتحلى بالفضائل التي يرتضيها ويرضي بها الله والرسول فعاش محبوبا محترما ، مقدرا مكرما • يثق به الجميع ، ولا يشك به الوزير والكبير في شؤون الدولة وأسرار الامور ، ومن أطرف ما حدث له في هذا الباب حادثة مع (ابن هبيرة) ، رواها الاديب المحدث المشهور أبو الحسن محمد بن اسماعيل القيلوي[1] ، فقد كان يوما في مجلس من مجالس الوزير ابن هبيرة ، وجاء رسول من دار الخلافة ، وتحدث الى الوزير بحديث سري كان يجب أن يكتمه ولا يتحدث به أمام أحد ، ولكن ابن جيا سمعه لقرب مجلسه من الوزير •• ولم يكد رسول دار الخلافة يخرج حتى تجمع في مجلس الوزير كثير من أصدقائه ورواد مجلسه من علماء وأدباء ، وأعيان وكبراء ، فانشغل بهم الوزير ••• وبعد حين خرج ابن جيا ولكنه لم يكد يصل باب العامة[2] ، حتى جاءه مَن رده قائلا : « ان الوزير يطلبك » فرجع ابن جيا على عجل ، وقد فهم ما يريد الوزير وعرف ما يقصد ، ولما وقف ابن جيا بين يديه قال : « أحسن الله الى مولانا الوزير وأدام أيامه ، بيت الحماسة » • ففهم الوزير ما يعنى ابن جيا ، فانبسطت أساريره ، وارتاحت نفسه ، وقال له : « نعم •• امض بارك الله فيك ، كذا الظن بمثلك » فخرج ابن جيا ولم يفهم أحد ما دار

---

(١) القيلوي : نسبة الى قيلوية ، وقد ضبطها ياقوت الحموي في معجمه « بكسر أوله وسكون ثانيه ولام مضمومة وواو ساكنة • قرية من نواحي مطير آباد قرب النيل » (ج ٧ ص ١٩٨) •

(٢) باب العامة من أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد • ويرى استاذنا الدكتور مصطفى جواد أنه كان عند جامع (الخاصه‌كي) قرب شارع الرشيد •

بينهما • وكان الوزير يريد من ابن جيا أن يكتم ما سمعه من حديث دار بينه وبين رسول دار الخلافة • وكان ابن جيا يقصد ببيت الحماسة قول الشاعر :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير اني جماعها

فهذه الحادثة الطريفة ترينا الى جانب الثقة التى كان يتمتع بها ابن جيا لدى الوزير ابن هبيرة •• حسن ظنه به ، وتبين لنا بجلاء ووضوح فطنة ابن جيا وذكاءه وحسن توسمه ، وسلامة تصرفه ، والى ذلك كله فانها تكشف عن سعة اطلاعه وكثرة حفظه لاشعار العرب ، فهو يختار مما يحفظ ما يتلاءم وموقفه •

وقد ظل ابن جيا في بغداد ، فقد قال عماد الدين الاصفهاني : انه ما زال يقيم ببغداد سنة أحدى وسبعين وخمسمائة (٥٧١ هـ) أي قبل وفاته بثماني سنوات ، وقد كان يتمتع بصحة موفورة ، وفكر نابه ، وفطنه مستقيمة وهمة ونشاط ، وقد توفي ابن جيا ببغداد سنة تسع وسبعين وخمسمائة للهجرة (٥٧٩ هـ) رحمه الله وأدخله فسيح جناته •

شعره :

ان الذى يؤسف له أشد الاسف أن يضيع شعر ابن جيا فلا يصل الينا منه غير قصيدة طويلة واحدة وبضع مقطعات قصار ، وهو الذي أنشد الكثير من اشعر طول حياته التي نيفت على الثمانين من السنين • فقد انشد شعره في الحلة ، وأرسل قصائده في بغداد ، شدا بها في النوادى الادبية ، عند ابن هبيرة وغيره ، ورواها في بيوت بعض أصدقائه من الادباء والمؤرخين ، فحفظوها ونقلوها الى غيرهم معجبين ، فهذا ابو الثناء محمد بن عبدالله بن المفرج يقول : « انشدنى شرف الكتاب ابو الفرج بن جيا ببغداد بمنزلنا لنفسه[1] » وقد دون بعض هؤلاء المعجبين بشعره كثيرا منه ، فقد

---

(١) المحمدون من الشعراء وأشعارهم مخطوطة باريس برقم (٣٣٣٥ عربية) ورقة ١١٢أ •

قال ياقوت الحموي : « وشعره ورسائله مدونة .. »[٢] ولكن أحدا لم يشر الى وجود ديوان يضم شعره ، أو ما يشبه الديوان من مجموعات الشعر . والظاهر أنه لم يهتم بجمع شعره كغيره من الشعراء ، الذين أولوا ذلك عناية خاصة فدونوا دواوينهم ، واهتموا بتنظيمها ، وتأنقوا في تنسيقها. فقد دونت قصائده وأشعاره على صفحات أوراق المعجبين ، وتفرقت هنا وهناك ، وتشتت عند هذا وذاك ، وفقد الكثير منها فلم يصل الينا منها غير النزر اليسير . ولم يكن شعر ابن جيا شعرا ضعيفا ركيكا ، لا يستحق التدوين أو الحفظ ، بل كان شعرا جيدا جميلا رقيقا . فقد أثنى القاضي (علي بن يوسف القفطي) على جودة شعره في كتابه (المحمدون) كما مدحه الاديب (صلاح الدين الصفدى) اذ قال : « لم يكن مثله في العراق في الترسل والادب والنظم الحسن »[٣] وجاء في (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) : « له شعر جيد »[٤] هذه نظرة القدامى الى شعر ابن جيا . أما المحدثون ، فان استاذنا العلامة الدكتور مصطفى جواد يقول في وصفه : « عذب على المسامع رائق للنفوس واضح الكلم »[٥] والحق انه لكذلك فهو شعر يمتاز بالعذوبة ويتصف بالجمال ، ولا عجب فهو من مجيدي الشعراء ومقدميهم ، ولا ريب أن حضوره المجالس الادبية وسماعه القصائد الشعرية ، واستماعه الى المناقشات اللغوية المختلفة ، والآراء النقدية افاده كثيرا ، فكان يتأثر بما يقتنع به ، ويتحسس ما يرضى به ذوقه ، فيستوعب نظمه وقواعده واصوله ، ويحاول أن يخلص شعره من عيوبه ، ويدخل في قصيده محاسنه ، ولا شك أن تلك المجالس اكثرت شعره وشحذت شاعريته وزادت براعته ، وعملت عملها في تطوره وتقدمه .

واسلوب شعره جميل رقيق ، سهل ناصع ، فيه جزالة وفيه رقة ،

---

(٢) ارشاد الاريب ج ٦ ص ٣٦١ .
(٣) الوافي بالوفيات في ٢ ص ١١٢ .
(٤) المختصر المحتاج اليه . نشر الدكتور مصطفى جواد ص ١٣ .
(٥) مجلة الغري ، السنة الثامنة ـ العدد ١١ ـ شعراء العراق في القرن السادس .

فيه قوة وفيه عذوبة .. كل ميزة تتيسر في الموضوع الذى يتطلبها ويعتمد عليها . ألا ترى سهولة اسلوب هذه الابيات :

فاشرب كؤوسا كالنجوم تديرها أيدي البدور
من كل أهيف فاتر الالحاظ كالظبي الغرير
يحكى الظلام بشعره والصبح بالوجه المنير

ويمتاز شعره بجمال اللفظ ، فهو يختار الالفاظ ذات الجرس الموسيقي والنغم الحلو ، ليؤثر في نفوس السامعين . ولكنه قد يستعمل المفردات الغريبة ، الا أنها ليست نابية جافية ، بل تكسب البيت جمالا في بعض الاحيان ، كقوله :

وأشعث مثل السيف قد منه السرى وقطع القيافي مهرقاً بعد مهرق
من القوم معلوم يميل برأسه شغفات اعجاز النعاس المرنق

وتنحصر أغراض شعره الذى وصل الينا في الغزل والمديح والمراسلات الاخوانية . وهناك قليل في الهجاء .

أما غزله فبعضه على شكل مقطعات مستقلة ، وبعضه مقدمات لقصائد المديح كقوله متغزلا في مطلع قصيدة يمدح بها الامير أبا الهيج عبدالله بن ورام الكردي الجاواني :

سرى موهناً طيف الخيال المؤرق فهاج الهوى من مغرم القلب شيق
. . . . . .

وهو يظهر نفسه في هذا الغزل محبا مدلها دام حبه وطال عناؤه ، لانه يتنقل في حبه من ميدان الى ميدان :

حتام أجري في ميادين الهوى لا سابق أبداً ولا مسبوق
ما هزني طرب الى رمل الحمى الا تعرض أجرع وعقيق

وهو غير سعيد في هذا الحب كما يبدو في غزله ، فحزنه باد ومدامعه جارية في أكثر هذا الغزل كقوله :

ومدامع كفلت بعارض مزنة لمعت لها بين الضلوع بروق

فكـــأن جفني بالدمـــوع موكـل وكـأن قلبي للجـــوى مخلـــوق
لأنبهنّ على الغـــرام بزفـــرتي ولتطـــربن بمـــا أبث النـــوق

وقد كان ، في حبه ، يقنع بزورة الطيف ، ويكتفى برؤية خيـــال الحبيبة ، يفرح به ويتغنى له ، ويصف جمالها ويتشبب بحسنها بالرغم مما يصيبه من نبال عينيها وسهام بريق اسنانها ، من ذلك قوله :

أما والعيـــون النجل تصمي نبالهـا ولمع الثنـــايا كالبروق تخالهـــا
ومنعطـــف الوادي تأرج نشـــره وقد زار في جنح الظـــلام خيالها

ولعل السبب في هذا أن حبيبه قالٍ ميال للهجران مغالٍ فيه لا يستفيق ولا يصحو :

قد كان في الهجران ما يزع الهوى لو يستفيق من الغـــرام مشـــوق

ولـكنه قد يتعالى على الحبيب ، ويدعى أن شوقه لم يعد منبعثا من القلب صادرا عن الاعماق ، بل صار عادة من العادات ، فعلى الحبيب ألا يستمر في دلاله :

قـدم الزمان وصار شوقي عـــادة فليتـــركنّ دلالـــه المعشـــوق

أما مديحه فلا يختلف عن مديح شعراء العرب في أغلب مظاهره ؛ فهو يبدأ بالغزل ، ثم ينتقل منـه الى المديح ، فيصف ممدوحه بالـكرم والشجاعة والحزم والعزم ، ويسبغ عليه كل خلق كريم ، ولا ينسى أن يذكر أهله وقومه . وقد يبالغ في ذلك مبالغة بينة كقوله :

أيا ابن الأُلى جادوا وقد بخل الحيا وقادوا المذاكي والدمـــاء نعالهـــا
ذُدِ الدهر عني من رضاك بعزمة معـــوّدة ألا يغـــل رعالهـــا

هذه المبالغة من لوازم مديح عصره ، بل من لوازم الشعر بمختلف أغراضه ، وهو مسوق اليها بالرغم من أن مديحه لم يكن طلبا للمال أو الجاه ، اذ كان يتمتع بمنزلة عالية عند الـكبراء والوزراء ، ورتبة سامية بين العلماء والادباء . ولو كان من الذين يجرون وراء المال لما اكتفى بما تدره عليه أملاكه القليلة من رزق ضئيل يتبلغ به ، ولما اكتفى بأن يكون كاتبا

بسيطا يشبه كتاب العرائض في العصر الحاضر ، وقد بين ذلك الدكتور مصطفى جواد بقوله : « لانه لم يكن كثير الالحاف في شعره ـ كما هو ظاهر في مدحه أبا الهيج عبدالله بن ورام الكردي الجاواني »[1] ولا عجب فهو الذى يقول في المديح :

فما مدحكم مما أعاب بقوله ... اذا أفسد الأقوال بعض التملق
ولكن بقول الحق أغريت فيكم ... ومن يتوخ الحق بالحق ينطق
فان نلت ما أملته من ولائكم ... ومدحكم يا ابن الكرام فاخلق
وما دون ما أبغي حجاب يصدني ... بردٍ ولا باب عن الخير مغلق
اذا أنا أحرزت المودة منكم ... فحسبي بها اذ كنت عين الموفق

فهو لا يريد مالا ولا يطلب جاها ، ولا يبغي غير المودة وهي حسبه.. وهذا بين في صدقه ومعلوم لدى معاصريه ... فقد عرفوا أن الكراء والامراء والوزراء لم يغلقوا بابا دونه ، ولم يدعوا حاجيا يرده .. كما يعلمون حق العلم أنه صادق في قوله ، صادق في عمله ، صادق في عاطفته نحوهم . وقد بين ذلك في شعره اذ قال : « ولكن بقول الحق أغريب فيكم » ثم يطلق القول كالحكمة والمثل السائر بين الناس : « ومن يتوخ الحق بالحق ينطق » وهو مغرى بالحكمة على هذه الصورة ، يقول :

. . . . . « وما خلق الانسان مثل التخلق »

أو يقول أيضا :

. . . . . « ولكن شديد في الطباع انتقالها »

أما مراسلاته واخوانياته فمقطعات شعرها عذب رقيق ، سهل مستساغ. كتب الى سعد الدين المنشىء سنة سبع وأربعين وخمسمائة للهجرة (٥٤٧ هـ) يقول :

هنئت في اليوم المطير ... بالراح والعيش النضير
ومنحت بالعز الذي ... يعدى على صرف الدهور

---

(١) مجلة الغري العدد ١١ السنة ٧ ص ٥ شعراء العراق في القرن السادس .

فاشـــرب كؤوســـاً كالنجـــو م تديرهـــا أيـــدي البـــدور

. . . . . .

فانعـــم بـــه مستيقنـــاً احمـــاد عاقبـــة الامـــور

فكبـــير عفـــو الـــرب مـــوقوف علـــى الـــذنب الكبـــير

واســـلم علـــى مـــر الزمـــا ن لكـــل ذي أمـــل قصـــير

تفنـــي زمـــانك كلـــه بالعـــزم منـــك وبالســـرور

مـــا بـــين حفـــظ للثغـــو ر وبـــين رشـــف للثغـــور

فهو يبدأ شعره بالدعاء له بالهناء والراحة والسعادة ، ويرجو له اقامة محمودة ، ويتمنى له الغفران والعفو من الله العزيز القدير .

وقد يشكر أصحابه على ما يولونه من فضل ، ويطلب منهم ألا يولوه عارفة اخرى حتى يرد ما سلف لهم من يد ويقوم بالشكر .

أنـــت امـــرؤ أوليتنـــي منـــا أوهت قـــوى شكري فقـــد ضعفا

فاليـــك بعـــد اليـــوم معـــذرتي لاقتـــك بالتصـــريح منكشـــفا

لا تســـدين الـــيّ عارفـــة حتى أقـــوم بشـــكر ما ســـلفا

وكم كنا نتمنى أن تصل الينا أشعاره الاخوانية كاملة لنعرف منها أسماء الذين كانت تربطه بهم علاقات وطيدة غير من ذكرنا ، فمن الغريب أننا لم نجد أية صلة بينة وبين أديب حلي آخر عاصره زمنا غير قصـير وعاش في بغداد منذ سنة (٥٠١ هـ) حتى سنة (٥٣٥ هـ) وذلك هو الشاعر الكاتب علي بن أفلح العبسي .

ولم يصل الينا من هجائه غير مقطوعة واحدة يذم بها الزمان مضطرا ، لانه يصرح فيها بأنه ليس من طبعه ذم الزمان . وقد عرض فيها بأحد العيارين الشطار ، ذكر أنه (ابن شكران) ولكن استاذنا الدكتور مصطفى جواد يرى أنه (ابن بكران) الذى قتل في سنة (٥٣٢ هـ) فيقول ابن جيا في ذلك :

قل لحادي عشر البروج أبا العاشر منها رب القرون الثاني
يا ابن (شكران) ضلة لزمان صرت فيه تعدّ في الأعيان
ليس طبي ذم الزمام ولكنْ أنت أغريتني بذم الزمان

فابن جيا يذم الزمان ، وان لم يكن مما يهمه ذلك ، يذمه اذ صار فيه هذا الشاطر العيار والمجرم الخطر من أعيان الناس • وقد ذكر (ابن الاثير) أن ابن بكران هذا قد عظم أمره في العراق كله ، وصار يركب ظاهرا في حشد من أتباعه المفسدين ، يسلب وينهب ويقتل ويؤذي ، لا يخاف أحدا ولا يهاب سلطة ••• وقد كان ورفيقه (ابن البزاز) يريدان أن يضربا باسميهما (سكة) في الانبار ، غير أن ابن أخي (أبي الكرم – والي بغداد) ، استطاع أن يحتال عليه ويقتله ويخلص الناس من شره[1] • فابن جيا الذى يقول انه ليس من شأنه ذم الزمان يجد نفسه مضطرا الى ذمه وهجائه حين يجد نفسه وقد استوعب علوم اللغة والادب وأبدع في الشعر والنثر لا يجد من المال الا ما يتبلغ به ، بينما يثري هذا الشاطر العيار المجرم ، الذى لا يعرف عن العلوم شيئا ، ويحاول أن يصدر (سكة) ليضاعف غناه ويضخم ثراءه •

واذا كان شعر ابن جيا قد ضاع ، فقد وصلتنا قصيدة طويلة من قصائده الحسان ، يمكن ان تعتبر خير نموذج لشعره ، تلك التي مدح بها الامير ابا الهيجاء بن ورام الكردى الجاواني • وهى قصيدة في ثلاثة وأربعين بيتا من بحر (الطويل) يبدأها بالغزل فيقول :

سرى موهناً طيف الخيال المؤرق فهاج الهوى من مغرم القلب شيق
تخطى الينا من بعيد وبيننا مهامه موماة من الارض سملق
يجوب (خداريا) كأن نجومه ذبال يذكى في زجاج معلق
اتى مضجعي والركب دوني كأنهم سكارى تساقوا من سلاف معتق
فخيل لي طيف البخيلة انها ألمت برحلي في الظلام المؤرق
فأرقني المامها بي ولم يكن سوى حلم من هائم القلب موثق

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٨ ص ٣٦٢ ط • الاستقامة •

ويستمر في غزله الرقيق هذا فيبلغ ستة عشر بيتا ، يصف فيها خيال حبيبته الذي سرى اليه من بعيد قاطعا المهامه والقفار ، فذكره بحبه وهيج قلبه ، وأرقه واقض مضجعه .. ويصف بعد هذا حالته مشبها نفسه بالاسير الذي تعرقت الصبابة لحمه وحبست انفاسه ، مما جعله يكابد ما لم يكابد مثله أحد من العشاق من قبل :

أســـير صبابات تعرّقن لحمـــه ... وأمسكن من أنفاســـه بالمخنـــق
اذا ما شكا العشاق وجداً مبرحـــاً ... فكل الذي يشـكونه بعض ما لقي

ولكن أمله في زيارة (سعدى) أو عودتها اليه والقرب منها هو الذى خلصه من موت محقق ، فقد نظر ، ونظره بعيد المدى ، الى حبيبته فملأ الشوق قلبه ، وظل واقفا وكأنه أحد شعراء الجاهلية الذين يقفون على الاطلال ، وقد بكى كما كانوا يبكون :

على انـه لولا الرجـــاء لأوبـــة ... تقربني من وصل (سعداء) ما بقي
نظرت ولي انسـان عـــين غزيرة ... متى يمرهـــا برح الصبابة يغـرق
الى علم من دار (سعدى) فشاقني ... ومـــن ير آثار المحبـــة يشـــتق
فظلت كأني واقف عنـد رسمهـــا ... طعـــين بمذروب الشـــباة مـذلق
وقد كنت من قبل التفرق باكيـــاً ... فعلمي بمـــا لاقيت بعـــد التفرق

ولـكنه بعد أن يثوب اليه رشده ، يعود فيحاسب نفسه ويذكر لها أن الدمع المنسكب من مقلته لا يقرب حبيبه البعيد .

وهل نافعي ، والبعد بيني وبينها ، ... اجـــالة دمـــع المقلـــة المترقرق ؟

ثم ينتقل الى وصف حصانه النحيف الرشيق كالسيف ، ويبين ما أصابه من وعثاء السفر وما قد خيم عليه من نعاس لطول سيره ، فقد قطع الفيافي واحدة بعد اخرى :

وأشعث مثل السيف قد منّه السرى ... وقطـع الفيافي مهرقاً بعـــد مهرق
من القوم معلوم يميـــل برأســـه ... شفـــافات اعجاز النعـــاس المرفق

ومنه ينتقل انتقالا حسنا الى ذكر ممدوحه اذ يقول :

طردت الكرى عنه بمدح اخي العلا أبي الهيج ذي المجد التليد المعرق

ويستمر في مدحه بنحو من عشرين بيتا ، في تسعة أبيات منها ، يلبسه أثواب المجد ويسبغ عليه نعم الاخلاق الكريمة جميعها ؛ فهو شجاع جريء ، سمح كريم ، فتى نجدة شريف ، ذو عزم جبار ، يفرج الكرب ويفتح كل مغلق من الامور :

حسام الجيوش عز دولة هاشم حليف السماح والندى المتدفق
فتى نجدة ينمى به خير والد الى شرف فوق السماء محلق
على وجهه نور الهدى وبكفه مفاتيح باب المبهم المتغلق
اذا انفرجت أبوابه خلت أنها تفرج عن وجه من البدر مشرق
وان ضاق أمر بالرجال توجهت عزائمه فاستوسعت كل ضيق
ترى ماله نهب العفاة وعرضه يطاعن عنه بالقنا كل فيلق
جموع لا شتات المحامد كاسب لها أبداً من شمل مال مفرق
سعى[1] وهو في حد الحداثة جده له في مساعي جده سعي مشفق
تلوح على أعطافه سمة العلا كبرق الحيا في عارض متألق

فهو يذكر كل ما يتمتع به وان أطال وأسهب • ثم ينتقل الى مدح آله وقومه وأصحابه ، ويتغنى بفخرهم ويعدد مناقبهم :

من النفر الغر الأُلى عمت الورى صنائعهم في كل غرب ومشرق
اذا فخروا لم يفخروا باشابة ولا نسب في صالح القوم ملصق

الا أنه سرعان ما يعود الى ممدوحه • ويذكره باسمه (عبدالله) دون كنية او اى لفظ من الفاظ التعظيم مما يدل على صلته به ومنزلته عنده ،

---

(١) في المختصر المحتاج اليه (سما) .

ويبين عجزه عن وصفه وذكره ، ولا ينسى أن يذكر ايمانه وخلقه الاصيل الذى ليس فيه تصنع :

اذا ما هضاب المجد سدت طلوعها ... ولم يرقها من سائر الناس مرتق
توقل (عبدالله) فيها ولم يكن ... يزاحمه فيها امرؤ غير أحمق
صفا لك يا ابن الحارث القيل في العلا ... مشارب ورد صفوها لم يرنق
متى رمت في استغراق وصفك حده ... أبى العجز الا ان يقول لي ارفق
فلست وان أسهبت في القول بالغاً ... مداه بنعت أو بتحرير منطق
ألا ان أثواب المكارم فيكمُ ... بواقٍ على أجسامكم لم تخرق
يجددها ايمانكم ويزيدها ... مضاكم على تجديدها فضل رونق
لك الخلق المحمود من غير كلفة ... وما خلق الانسان مثل التخلق
اذا ما نداك الغمر ناب عن الحيا ... غنينا به عن ساكب الغيث مغدق

ويختتم القصيدة بخمسة أبيات يبين فيها أسباب مديحه ، فهو مديح خالص بدون غرض وبلا ثمن . وما يرجو منه غير اداء الواجب والنطق بالحق ، ولا يطمع بمال أو جاه ، وان كان ذلك في متناول يده غير عسير عليه ، الا أنه لا يطمع بغير المودة والرضى وحسبه منه ذلك :

فما مدحكم مما أعاب بقوله ... اذا أفسد الأقوال بعض التملق
ولكن بقول الحق أغريتُ فيكم ... ومن يتوخ الحق بالحق ينطق
فان نلتُ ما أملته من ولائكم ... ومدحكمُ يا ابن الكرام فأخلق
وما دون ما ابغي حجاب يصدني ... برد ولا باب عن الخير مغلق
اذا انا أحرزت المودة منكمُ ... فحسبي بها اذ كنت عين الموفق

هذه خريدة فريدة لابن جيا ، لم يصل الينا غيرها من قصائده الكثار ، ولو وصلتنا قصائد أخرى لكان له شأن بين شعراء عصره أي شأن !

نثره :

لقد كتب ابن جيار رسائل كثيرة ؛ فقد كانت بينه وبين أبي محمد القاسم بن علي بن محمد الحريرى صاحب المقامات مراسلات • كما كانت بينه وبين الحكيم الطبيب والشاعر الاديب (هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة (٥٦٠ هـ) مراسلات أيضا • والى جانب هذا كله كان يكتب مسودات الكتب والرسائل للعمال في مختلف الموضوعات فكانت له في هذا الباب مراسلات حسنة ، ومبتكرات مستملحة ، فبرع براعة عظيمة في ذلك حتى استحق أن يقول فيه عماد الدين الاصفهاني : « مجمع بالعراق على بلاغته مبدع للاعناق أطواق براعته ، قد اتفق أهل العراق أنه ليس له نظير في الترسل ، فان روضه نضير في الفضل ، صافي المنهل ، يستعان به في الانشاء ويستبان فيه اسلوب البلغاء »[1] فمما لا شك فيه أن هذا الدأب والاستمرار في الكتابة ينمى ملكته ويجلي موهبته ، غير أن الذى يؤسف له أن رسائله الكثيرة هذه قد ضاعت ، ولم يصل الينا منها غير رسالة واحدة، يقول ياقوت الرومي انه كتبها لسديد الدولة (محمد بن عبدالكريم الانبارى) الكاتب ، ليبعث بها كجواب لاحدى رسائل القاسم بن علي الحريرى • واذا ثبت ان هذه الرسالة كتبت الى الحريرى ، الذى توفي سنة ست عشرة وخمسمائة للهجرة (٥١٦ هـ) يكون ابن جيا قد نبغ في الكتابة واشتهر ولم يزد عمره عن عشرين سنة •• ولكن استاذنا الدكتور مصطفى جواد يشك في أن تكون هذه الرسالة قد كتبت الى الحريرى اذ لا صلة بين الموضوعات التي تتناولها وما تتناوله رسالة الحريرى التي رووا ان هذه الرسالة كتبت جوابا لها من موضوعات • ويرى انها كتبت جوابا لرسالة بعث بها الى هبة الله بن صاعد بن التلميذ لانه ذكر فيها (ملحة الاعراب) وتأليفا آخر هو (درة الغواص في أوهام الخواص) •

---

(١) مجلة الغري – السنة ٧ العدد ٨ – الدكتور مصطفى جواد – (عن أصول الادب والتاريخ ج ١٣ ص ١٤٣ عن الخريدة) •

يقول بعض الرواة : ان الحريرى كتب رسالة بعث بها الى سديد الدولة يقول فيها : كتب الخادم وعنده من تباريح الاشواق الى الخدمة ما يصدع الاطواد فكيف الفؤاد ؟ ويوهي الجبال فكيف البال ؟ ولكنه يستدفع الخوف بسوف ، ويبرد حر الاسى بعسى ، وهو على جمعهم اذ يشاء قدير :

ألا ليت شعري والتمني خرافة وان كان فيه راحة لأخي الكرب

... هذه على عاهتها بنت ساعتها فان حظيت منه بالقبول المأمول ، فيابشرى للحامل والمحمول ، وان لمحت لمحة المستقبل ، فياخيبة المرسل والمرسل ، والسلام » .

فرد عليه ابن جيا يقول :

« سيدنا الشيخ الامام في توالي مباره والقصور مني عن تأدية حقه وايفائه كمن يقرض غريما مع عسرته ، ويتكثر بمن أفرده الزمان عن أهله واسرته ، فهلا اقتصر بي من دينه على ما تقادم عهده ، ولم يشفعه بطول ما حفت قوس شكرى وكان مستحكما عقده :

أنت امرؤ اوليتني منناً أوهت قوى شكري فقد ضعفا
فاليك بعد اليوم معذرتي لاقتك بالتقدير منكشفا
لا تسدين الي عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

فاما ما يعزوه الي من البراعة وحسن الصناعة ، ويقرره من احسان كان الطي أولى به من الاذاعة ، فتلك حال ان ثبتت فيها الدعاوى واتفق على صحة نقلها المخالف والموالي فانها جريت اليها بجيادهن التوالي لسوابقه الصوادي الى مناهل حقائقه . واين الرذايا بعد ذلك من السابقات ، والمقصرة من اللاحقات ، والمقرفة من كريمات المناسب والمكرية مطالبها من نجيحات المكاسب :

سبقت الى الآداب أبناء دهرنا فبؤت بعادي على الدهر أقدم

وليست كما ابقت ضليعة اضجم ... وليست كما سادت قبائل جرهم
ولكن طوداً لم يحلحل رسيه ... وقارعة تعساء لم تتسنم
اذا ما بناء شاده الفضل والتقى ... تهدمت الدنيا ولم يتهدم

فالله تعالى يحرس عليه ما خوله من هذه الخصائص النفيسة والمنح الشريفة • ولا تعدم القلوب الراحة بمحاضرته كما لم يخله من النصر اذا اشرع رماح الجدل يوم مناظرته ، بمنه وجوده ، فاما اعتذاره عن انفاذ ذلك التأليف وانكاره للفراغ منه بعد التعريف ، فما يخفى ما وراء ذلك من المغالطة وما يقصده في كل وقت من قطع حبال المباسطة ، لولا ان المعاتبة اذا حقت قلما يسلم معها وداد ويجود في مطاويها من الصفاء عهاد :

لأرسلتها مقطوعة العقل تغتدي ... شواء وقد بالغن في الجولان
قوارص تبقى ما رأى الشمس عارض ... وما سمعت من سامع اذنان

لكن المقصود ما عاد باجمام خاطره وصفاء مشاربه ، والا اكون عليه عونا للدهر ونوائبه ، لا سيما وقد رأيت الصبر على فعاله ، أيسر من الصبر على ترك وصاله ، فأما الملحة[1] فانني وجدتها عند الوصول كما سماها غريبة في لفظها ومعناها ، عارية عن لبسة التكلف ، بعيدة عن التصنع تقتاد القلوب بازمتها وما كان اولاه لو قرنها الى ذلك العقد المكنون والدر[2] المصون فكانت النعمى تكمل والمسرة تشمل ، وها أنا ارتقب لذلك السمط ان تؤلف فرائده ، وتجمع بدائده ، وانتظر لوصوله يوما تقل همومه وتكثر حواسده ، فما ذلك بمتعذر عليه متى رامه ، ولا بمعوز ان سرح سوام الفكر وشامه ، ولرأيه في ذلك ومعرفته وانجاز الوعد جريا على كريم عادته ، مزيد من علاء لا يطرأ الا فول على أهلته ، ان شاء الله تعالى وحده »[3] •

---

(١) يقصد كتاب (ملحة الاعراب) •
(٢) يقصد (درة الغواص في أوهام الخواص) •
(٣) ارشاد الاريب لياقوت الحموي ج ٦ ص ٣٦١ •

واذا انعمنا النظر في هذه الرسالة وأطلنا التأمل ، وجدنا أن اسلوبها سهل ليس فيه أى تعقيد ، يخلو من الغريب ، وهو سليم من الغثاثة • ولكنه ـ كعادة كتاب عصره وما شاع عندهم ـ اسلوب مسجوع غير انه سجع لا تكلف فيه ولا تعسف مما نحس معه بغرابة أو نبوة • كما لا تخلو الرسالة من شعر كقوله :

لارسلتها مقطوعة العقل تفتدي شواء وقد بالغن في الجولان

قوارص تبقى ما رأى الشمس عارض وما سمعت من سامع اذنان

ويمتاز اسلوبه في هذه الرسالة باستعمال المحسنات البديعية والأساليب البلاغية ، من جناس وطباق وكنايات واستعارات ، فتكاد الرسالة تكون ملأى بذلك مما لا يخفى على القارىء الفطن الاديب •

واذا كان باستطاعتنا أن نحتمل أن اسلوب رسائل ابن جيا عامة يكاد يكون على هذا النمط ، فاننا لا يمكن أن نقول ان معانيه في رسائله جميعها تمتاز بالسطحية والبساطة التى تمتاز بها معانيه في رسالته هذه • ولعل العذر الذى أوجده لذلك الدكتور مصطفى جواد على حق ، اذ انه قال : « على أن معانيه من المعتادة التي لم يتعب الكاتب نفسه في اختيارها ، ولعل موضوع الرسالة هو الذي جعلها كذلك • ولا نستطيع أن نجعل هذا القول عاما لرسائل ابن جيا كلها »[1] أجل فالموضوع الذي يتناوله الكاتب في رسالته يؤثر في الاسلوب ويؤثر في المعاني ، وهو في هذه الرسالة موضوع بسيط معتاد يدور حول ارسال مؤلفات ووصولها ، والى هذا فان الكاتب لا يعبر في رسالته هذه عن أفكاره أو أحاسيسه ، وانما يكتب رسالة لغيره طلب منه

---

(١) مجلة الغري ـ العدد ٨ السنة ٧ ـ شعراء العراق في القرن السادس •

ذلك ، فهي رسالة مصنوعة أو أقرب الى ذلك ، ولو أننا عثرنا على رسائله الاخرى التي قال عنها اكثر الكتاب « انها مدونة » لاستطعنا أن نعطيها حقها من التقدير كما نوليها ما تستحق من العناية والدرس ، لنعرف بحق السبب الذي من أجله « اتفق اهل العراق انه ليس له نظير في الترسل » كما قال العماد الاصفهاني في خريدته • والله تعالى يرحم المحسنين ويجزي العاملين •

جواد أحمد علوش